الشخصية في صناعة الرواية

بقلم اليزابيت بوين

ترجمة سميرة عزام

هل يمكن لنا — كقراء — ان نهتم برواية مهما كان القصد من وراء كتابتها، اذا لم يكن في شخصيات القصة نفسها ، ما يجذبنا اليها ؟

فاذا سلمنا بان تألق الشخصية هو من اقوى عوامل الجذب، اذن فما الذي يخطر اولا في بال المؤلف عندما يشرع في التأليف : الناس أم الشخصية ام العقدة ؟

لاشك انه مهتم بالعقدة اولا ، فهناك فكرة الكتاب ومسرح الاحداث ، ثم يفكر الكاتب في الشخص الذي يمكن ان يحقق له فكرته ثم في شخص ثان او اشخاص آخرين تنعكس عليهم ردود فعل الشخص الاول .

قد يقول المؤلف انني بحاجة الى شخص متكبر ، او الى امرأة رومانتيكيه الى درجة البله تدفعها طبيعتها الى أن تفعل كذا وكذا من الاعمال ، او قد احتاج الى انسان يتسم بالبراءة المطلقة ، او الى شاب غرير جاهل .

ولكن اختيار طراز خاص من الناس لا يضع حداً للمشكلة، فمع ان النماذج قد اختيرت مسبقاً لتخدم فكرة العقدة ، الا ان تبلور العقدة يفرض عليها حركاتها واتجاهاتها :

ان اشخاص القصة يجب ان يحملوا معهم الى الكتاب حتميتهم (inevitability) اي ان يتصرفوا بالشكل الذي نتوقع منهم ان يسلكوه حتى اننا نكاد نتنبأ بنهاياتهم او مصائرهم ، فاذا لم تظهر هذه الحتمية ، واجبرهم المؤلف على ان يسلكوا طريقاً لانتوقعه نحن ، عندها نميل الى الاعتقاد بجنوح الرواية عن الواقعية .

فكيف يظهر لنا الروائي شخصياته ؟ سؤال لا بدّ منه ونحن مسوقون الى ان نراهم ، فنتعرف عليهم ونتتبعهم بحماس، ونرى اي الادوار شاء لهم الروائي ان يلعبوا . وقبل الاجابة على السؤال، نستعرض اولا بعض النماذج التي ظهرت في رواية لهنري جيمس اسمها Portriat of A Lady . المنظر بيت ريفي انكليزي قائم على ضفة التيمس، الوقت مساء والفصل صيف ، وثمة رجلان يجري بينهما حديث . كان احد الرجلين انساناً مميزاً في الخامسة والثلاثين ، له وجه لا يمكن ان يكون الا لانكليزي ، وسيم بملامح مستقيمة . شعر اشقر وعينان رماديتان ولحية كستنائية ، وللرجل نظرة تعكس ذكاء وبعد نظر وطبعاً رضيا صقلته ثقافة عالية يحسد عليها . وكان لابساً حذاء الركوب ويبدو كمن ترجل الساعة عن فرس ركبها طويلا . يضع على رأسه قبعة تبدو اكبر من الرأس . وقد عقد يديه خلف ظهره وانطبقت احداهما على قفازات قذرة من جلد الكلب .

اما الآخر ، فقد كان من طينة مختلفة، وهو وان كان يثير فيك طبيعة الفضول ، الا انه لا يمكن ان يكون موضع حسد قط . طويل نحيل ضعيف ومرتخ ، له وجه ذو قبح مقبول ، وسحنة فرشت بشارب وعارضين لا يفتآن يهتزان . يمتزج في سيماه الذكاء والغباء في غير انسجام واضح . يلبس سترة من القطيفة البنية ويضع يديه في جيبه بطريقة خاصة يبدو معها انها عادة ملازمة وله مشية تعوزها الرشاقة والثبات ..»

الشخص الاول هنا هو لورد انكليزي، اما الثاني فامريكي منتدب للعمل يتمتع بقدر من الذكاء، وهو من الشخصيات التي تحفل بها عادة اعمال هنري جيمس الادبية .

نلاحظ ان الوصف لا يساعد تماماً على وضع اي منهما في فئة محدودة (Category) . ونرى ان جيمس قد حرم الاول من ان يكون انساناً ممتازاً بهذه الرتوش التي اضفاها عليه حين وصف قبعته بانها اكبر من رأسه، وبان قفازيه قذران .

اما الثاني فنحن نحس بعدم الاستقرار في شخصيته لوصفه عارضيه بالاهتزار ومشيته كذلك . ونشعر ايضاً بانه انسان يمكن التجاوب معه .

وكلا الرجلين لا يمكن ان يكون « الشخصية المحور » فايزوبل آرتر ستدخل بعد قليل وتقطع الممشى متجهة اليهما . ولقد قرر كل منهما ان يلعب دوراً في حياتها . ونعتقد ان طبيعة الدور الذي سيلعبه كل منهما في التعبير عن حبه لايزوبل ورغبته في مساعدتها يمكن ان يستنتج من الصورة الوصفية

التي وضعها لها هنري جيمس في سطور .

رسم الشخصية بواسطة التحليل او الديالوج

خلاف ما تقدم نرى ان هناك وسيلة اخرى لاظهار الشخصية لا تقتضي من الكاتب صورة وصفية قد يحس معها القارئ بالخروج قليلا عن انسياب الاحداث . وهي ترتبط بالحوادث وتكامل الموضوع ،وتتم باسلوبين : التحليل والحوار . ولطالما لجأ الى التحليل كتاب نهاية القرن الثامن عشر وكتاب العصر الفيكتوري ، فكان المؤلف يتدخل ليصف لنا الاحداث التي قد تلم بشخصياته ويتطوع بنفسه ليكشف لنا عن عواطفهم وافكارهم .

وثمة لون آخر من التحليل بدأ يظهر في اعمال الكتاب منذ مطلع القرن الحالي ويعرف بتداعي الفكر .

وممن عرفوا باللجوء اليه كثيراً دوروتي ريتشاردسون وجورج ميرديث ، وبروست جيمس وجويس ، واحياناً — ولكن في غير اسراف — فيرجينيا وولف . واسلوب تداعي الفكر يقدم لنا الشخصيات او يعرفهم الينا من خلال الافكار التي تخطر لهم شخصياً والاحساسات التي ينفعلون بها

وهذا انموذج لهذا اللون ظهر في رواية دوروتي ريتشاردسون « النفق » :

كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة ، وهي توشك ان يغمى عليها من الجوع ، اذ لم تكن تملك عشاء ؛ وكانت غرفتها خلواً من كل ما يؤكل . وتلفتت في الطريق تبحث عن مكان يمكن ان تتناول فيه شيئاً من البطاطس ،فلم يقابل رغبتها سوى رصيف تقوم على جانبه اضواء خافتة تمتد الى ما لا نهاية .وانعشها المشي السريع والهواء البارد ، ولكنها اشفقت على نفسها من هذا السير الطويل الذي يتحالف مع الجوع فلا يدع لها بقية من حيوية للغد .

وتبدت لها فجأة انوار اكثر سطوعاً تقوم في نهاية الرصيف تبرز امام عينيها كالتهمة ، فاستحثت خطاها وسارعت لتصطدم بباب من الزجاج غير الشفاف لأحد المطاعم ، كأن العالم كله قد تركها وحيدة لجوعها وقبع خلف هذه الابواب غير الشفافة . ومع ذلك فهو يريدها ان تعترف ان هناك طعاماً خلف هذه الابواب .

واتجه فكرها بألم الى باب مماثل في شارع بيكر دفعته ودخلت وهي تذكر كيف احتقن وجه الجرسون بغضب وهو يسحب السكاكين والشوك والأطباق عن المائدة التي جلست اليها ثم راح ينادي لها في غير احتفال على فطيرة بالزبد . من يدري لعلهم في المساء يرفضون ان يقدموا لها شيئاً ويأبون عليها مجرد دخول المطعم .

وظلت واقفة امام المدخل الذي قامت على جانبيه احص مزروعة ثم تجرأت واقتربت منه .. اذ لم يكن فخماً كذاك الذي دخلته في شارع بيكر ، ولم يكن هناك مينو يتوسط اطاراً زجاجياً كبيراً يعلوه اسم (Schepp's)

ومدت يدها ودفعت الباب ، لتصطدم بباب زجاجي آخر ..

يا للسماء ! لماذا كل هذه السريه ؟..

وهكذا تقدم لنا الروائية التفاصيل ، شارع طويل خافت الاضاءة يقود الى مطعم .. ولكن ذلك كله يلوح لنا من خلال نفسية فتاة جائعة متعبة — عصبية ، تلوح لها الاضواء كالتهمة ، ففي ذلك امتحان لجرأتها .اما تلك السرية التي تحس بانها تغلف كل شيء ،فمردها الى احساس بالغربة في لندن الكبيرة الباردة يجعلها ترى الاشياء غير ما يراها ابن المدينة اذ يعتبرها هذا جزءاً يكمل روتينه اليومي .

ملاحظتان تؤخذان على طريقة تداعي الفكر . انها تستغرق وقتاً وانها تنصب عادة على تجربة عادية تسلط فيها الاضواء داخلياً على رد الفعل الداخلي في نفس الشخصية .

ولا ندري ما اذا كان من المستحسن ان يلجأ الكاتب الى اسلوب التداعي هذا مع شخص يتسلق قمة ايفرست مثلا ، لان التسلق في حد ذاته عملية مثيرة ، ولان الإثارة والاحساس بالخطر ، والانفعال تتركز عادة في نفسية البطل المتسلق المنفعل بالعملية ، اما سائر اشخاص القصة فتلفهم ظلال باهتة في موقف كهذا . ويصبحون ثانوي الاهمية .

وننتقل بعد ذلك الى الحوار — الديالوج — ونحب هنا ان نركز على مسألة الحوار ، فنقول انه اكثر الاساليب مساعدة على تحسيسنا بان شخصيات القصة هم من صلبها ، وان صفة الحياة فيهم مستمرة وانه — اي الحوار — مدعاة لاثارة اهتمام القارئ واستمتاعه ، ولقد كانت جين اوستن من اكثر معاصريها من الكتاب براعة في ادارة الحوار ، وكانت ترى في الحوار وسيلة لابراز تطورات الحوادث وليس تسليطاً للاضواء على الشخصيات فحسب ، وفي النموذج التالي من روايتها

(Mansfield Park) نجد ثلاث شخصيات : فاني الفتاة الفقيرة وقريبة مسز برترام . مسز برترام المستبدة الانانية وهي عدا صلة قرابتها لفاني تعتبر نفسها سيدة لها اذ استخدمتها في بيتها . ادموند ابن مسز برترام . ونراهم وقد واجهوا ثلاثتهم موقفاً جديداً ، ففاني الفتاة التي لا يكاد احد يحس بوجودها تتلقى لاول مرة دعوة للعشاء في الابرشية .

مسز برترام — لا ادري كيف وجهت مسز جرانت الدعوة لفاني ، وكيف فكرت في ان تدعوها . ان فاني لم يسبق لها ان حضرت مثل هذه الدعوات . انا لا يمكنني الاستغناء عنها ابداً ، وانني واثقة من انها لن تذهب . فاني انت لا تريدين الذهاب ! اليس كذلك ..؟

ادموند (متدخلا) — اذا وضعت لها السؤال بهذه الصيغة فان جوابها سيكون لا ، ولكنني متأكد يا امي العزيزة بانها راغبة في الذهاب ، اذ لا ارى سبباً يقعد بها عن ذلك

مسز برترام — ما ازال غير قادرة على التصور كيف خطر لمسز جرانت ان تدعوها ولم يسبق لها ان فعلت . لقد اعتادت ان تدعو شقيقاتك بين آن وآخر . ولكنها لم تتذكر فاني قط

فاني تقول بلهجة من اعتاد انكار نفسه دائماً — اذا لم يكن بوسع سيدتي الاستغناء ...

ادمون (يقاطعها) — لا عليك. ان والدي سيمكث مع والدتي في المساء وانا كذلك. ما رأيك في ان تستشيري ابي ؟.

مسز برترام — فكرة طيبة ، سأسأل السير توماس حالما يحضر ، فيما اذا كان بوسعي ان استغني عن فاني في المساء

ادموند — لقد قصدت ان يؤخذ رأيه في هل يحسن بفاني ان تحضر الحفلة ام لا ، وانني متأكد من انه سيشجع ذهابها

مسز برترام — لا ادري ولكنه سيدهش جداً للدافع الذي حدا بمسز جرانت بان توجه لها الدعوة .. الخ

* * *

لقد كانت وسيلة التعبير قبل ثلاثين عاماً هي التحليل المطول المغلف بالضبابية . واستمر ذاك اللون الضبابي مسيطراً الى فترة ما بعد الحرب العالمية الاولى بقليل ، حيث بدأ الحوار يأخذ طابعاً واضحاً قصيراً مركزاً ، ومن وراء هذا اللون كان همنجواي . والحوار اليوم يكتب باساليب مختلفة. ونحب هنا ان نوجه الاهتمام الى طريقة استخدام الحوار لدى كاتبين معاصرين من مؤلفينا هما هنري جرين وايفي بيرنيت. ففي اعمال هؤلاء نتلمس الواناً من الحوار لا يقصد به الى تقديم الشخصية ، كما انه ليس بالواقعي او العفوي . هذه فقرة من رواية ايفي بيرنيت Elder's and Betters

« لقد كان السكون مخيماً على اولاد توماس فالتفت هذا وسأل :

— اليس من المفروض ان تكون الساعة قائماً على تعليم روبن ؟

— انني اعلمه الساعة يا ابي .

— وكيف ذلك ؟

— بوسائلي الخاصة .. فهذه تؤدي الى نتائج افضل مما تؤدي اليه الوسائل العادية

— اعتقد انه يؤدي لك خدمة خاصة .

— انه يتعلم كيف يستعمل دماغه ، وهذه هي غاية كل ثقافة .

— وهل هذه هي البداية ؟

— البداية والنهاية معاً ، انني لا افرق بينهما .

— اظن انه لابد من ان تدعه يضع اصبعه على اخطائه ؟

— سيعرف كيف يميز بنفسه بين الخطأ والصواب .

— لو كان يملك القدرة على التمييز لما ارتكب الخطأ من الاساس !

— يجب ان تعلم يا ابي اننا نتعلم من اخطائنا .

— وهل هو بحاجة الى معونتك ؟

— اجل ، كثيراً .

— ماذا يعتقد هو بوسائلك هذه ؟

— انه لا يفكر . ولن يلجأ للتفكير قط . انه يتعلم كيف

صدر عن

دار صادر — دار بيروت

معجم البلدان

الجزء السابع

« الثامن

تحترم نفسه ، وكيف يستقل باموره ، وهذا ما اريده والا اضطررت الى ملازمته

— ما هو احساسه تجاهك ؟

— احترام اخشى ان يقرب من العبادة ، انني لن احس بحريتي اذا بلغ به الامر هذا الحد .

— وماذا تظن آن في اساليبك هذه ؟

— انها ترى انني لا استحق اجرتي من العم بنيامين .

— وهل تعتقد انت انك تستحقها ؟

— ان عملي لا يجازى بالنقود. وانا اتقاضى مكافآتي على هذا الاساس.

— وهل يرحب عملك بهذا التثقيف ؟

— نعم والا كان مضطراً ان يستدعي من يستحق الدفع غيري.

— ان مدخوله يفوق دخلنا، ومع ذلك فهم مصرون على دفن انفسهم في ذاك البيت السخيف .

من المؤكد ان هذا الحوار لا يقصد به رسم واضح لشخصية ما، فاستنتاج خطوط الشخصين ليس سهلا قط . هذا وكل اشخاص بيرنيت تتكلم بصورة تعكس علاقة صغير بكبير ، قوي بضعيف ، والحوار هنا كماهو في اعمال هنري جرين غاية في حد ذاته ، وان كان الاصح القول بان لا شيء في الرواية يعتبر نهاية في ذاته ، فالرواية كعمل كامل هي هدف وغاية المؤلف .

وقبل ان نأتي الى ختام البحث نحب ان نعرض لسؤال هو: هل هذا التطور في اسلوب الحوار الحديث يؤدي الى تغيير شكل الرواية « Form » وبالتالي اهدافها في عصرنا هذا؟ وهل يعني ذلك انتهاء عصر دراسة الشخصة (Character) كغاية في ذاتها ؟

هل ترانا نعود الى الشخصية الرمزية ، والى الشخصية المقنعة التي يحمل حوارها على التفكير الطويل ؟

وهل معنى هذا التحول عن الطبيعية هو انقضاء الاهتمام بالناس كافراد ، ام جعل الاهتمام بهم ثانوياً لشعور قوي من المؤلفين باهمية الازمات (Crisis) كعنصر رئيسي وغاية ولاهتمامهم بمعنى الانفعالات الجماعية ، الامر الذي يدفعهم للتفكير بنماذج جديدة من الناس ؟

شيء واحد بوسعنا ان نؤكده، هو ان الناس هم مادة الرواية، وستبقى الرواية هي حكاية الحياة الانسانيه بالرغم من ان عامل الزمن قد يفرض تغيراً في العرض وفي الاشخاص وطبيعة الادوار التي سيلعبون !

اليزابيت بوين

ترجمة سميرة عزام

روائع المسرح العالمي

سلسلة كتب تنتظم اروع المسرحيات العالمية وأشهرها وتتناول من القضايا ما يهم كل مثقف عربي

(يشرف على ترجمتها الدكتور سهيل ادريس)

صدر منها

١ . الايدي القذرة (نفدت)	تأليف	جان بول سارتر
٢ . بستان الكرز	«	انطون تشيخوف
٣ . الحقيقة ماتت	«	عمانوئيل روبلس
٤ . كانديدا	«	برنارد شو
٥ . الافواه اللامجدية	«	سيمون دوبوفوار
٦ . البلور المحرق	«	تشارلز مورغان
٧ . ثمن الحرية	«	عمانوئيل روبلس
٨ . العادلون	«	البير كامو
٩ . موتى بلا قبور	«	جان بول سارتر

قريباً

١٠ . رؤوس الآخرين	«	مارسيل ايميه

تطلب هذه السلسلة من دار العلم للملايين ودار الآداب - بيروت